يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

١٧ أكتوبر . . .

فكرت ملياً فى أمر ذلك الخطاب . من ترى يكون مرسله المجهول ؟ الأسلوب ينم عن أن صاحبه أزهرى فسد . هذه الآية القرآنية وهذا التوقيع لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذى يستغل علمه القليل وجهل الناس المطبق فى الريف فيعيش على تحرير البلاغات المأجورة وبذر الشقاق بين الأسر والأفراد . ولكن فى هذا الخطاب على أى حال وقائع تستدعى التحقيق . ولو صح ما جاء فيه من أن زوجة قمر الدولة قتلت خنقاً لخرجنا من الأمر بجناية تمخضت عن جناية . لا يهمنا الآن البحث عن صاحب الخطاب بقدر ما يهمنا التأكد من صحة الاتهام . لا بد إذن من فتح المقبرة واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب الشرعى . وقد اتجه تفكيرى كله هذا الاتجاه فلم أشغل ذهنى بما ورد من ريم فى هذا البلاغ وما يمكن أن يلحقها من شر . ذلك أن كل شىء مترتب على نتيجة فحص الجثة . وكنت قد بادرت فأخطرت الطبيب الشرعى ببرقية ، وقمت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة ، فعينت عليها الحراس يسهرون الليل بجوارها حتى لا يعبث بها عابث . وأرسلت فى طلب « الاتحاد » وكنت قد اتصلت تليفونياً بالمركز عقب قراءتى ذلك الخطاب

لأخطر المأمور ، فقيل لى إن المأمور ركب ومضى إلى اجتماع خطير معقود فى المديرية برياسة المدير وحضر إلى للغفور المعاون يقول :

— سعادتك اطلعت طبعاً على جرائد المساء

— أبداً

— فى البلد أزمة وزارية

فأدركت فى الحال سر اجتماع المديرية ، وعلمت أن رجال الادارة منذ الساعة ان يكون لهم عقل ولا فكر فى غير تقسم هوى الوزارة الجديدة ، حتى يعدوا أنفسهم الميل معها كما مالوا مع غيرها . وهذا الميل يبدو أكثر ما يبدو فى التجهم السريع للعمد والأعيان الموالين الوزارة الآفلة ، والابتسام البديع لأنصار الوزارة المقبلة . ولم أبد أية ملاحظة للمعاون ، فأنا رجل قضاء لا ينبغى لى الكلام فى السياسة ؛ ومهما تغيرت الوزارات والأحزاب فان القانون هو القانون . والتفت إليه أخيراً وقلت فى هدوء :

أظن حضرتك تقوم معنا بدل المأمور

— الظروف الحاضرة تمنعنى من ترك المركز .

لكن ملاحظ النقطة موجود هناك فى خدمة سعادتك

فتركته ينصرف إلى مركزه ، وأمرت باعداد السيارة ، وجلست أنتظر الطبيب الشرعى وقد أجاب على رقيمتنا باشارة تليفونية أنه حاضر اليوم . ودخل علىّ عبد المقصود افندى وأشار بيده إلى « النتيجة » المعلقة بالحائط ، وذكرنى بضرورة تفتيش سجن المركز ؛ فالنيابة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين فى كل شهر على الأقل . فلم ألتفت إليه وأمرته أن يذكرنى فيما بعد ؛ فمشى خطوتين ثم عاد وغمز بعينيه :

— فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت ونلوية أن تجرى انتخابات جديدة

— ومالّه ؟

— غرضى يعنى ... قبل سجن المركز ما يزدحم ...

فلم أنبس بكلمة ، وتشاغلت بتقليب أوراق القضية التى نقوم من أجلها ؛ ورأى رئيس القلم الجنائى أنى لن أجيب فانصرف متردداً متباطئاً . وأدركت من هيئته أنه لم يأت من تلقاء نفسه ؛ فناديته فرجع ، فقلت له فى ابتسامة التخابث :

— كاتب ضبط المركز كلمك فى التليفون ؟

فأجاب للفور :

— طبعاً . ودفاتر السجن مسددة جاهزة ... ومحضر التفتيش مكتوب . وكل شىء تمام ، ولا باقى غير إمضاء سعادتك ... والحكاية كلها قيمة ربع ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن

فنظرت إليه شزراً :

— شىء جميل . تفتيش فجائى مضبوط يا عبد المقصود أفندى ... ؟

فارتبك الرجل قليلا ثم قال :

— أنا غرضى ... راحة سعادتك من جهة ، وعدم إحراج المركز فى الظروف الحاضرة من جهة أخرى ...

— طيب . طيب ...

وأسرعت فأقفلت باب الموضوع . فقد سمعت نقراً على باب حجرتى ، وأبصرت من خلفه الطبيب الشرعى بحقيبته الصغيرة يستأذن فى الدخول . فنهضت فى الحال واتجهت اليه وأدخلته مرحباً . وطلبت له فنجاناً من القهوة . ثم تجاذبنا الحديث فى الأحوال العامة . فأخبرنى باختصار ما سبق أن علمته من عبد المقصود أفندى من أن الوزارة الجديدة قد تسلمت فعلا مقاليد الأمر ، وأنها تعد العدة لانتخابات جديدة . ولم نعلق على هذه الأخبار بشىء . فكلانا يجهل ميول الآخر . وكلانا يخشى أن يظهر رأيه الدفين . وبدأنا لوقتنا الكلام فى العمل وفى القضية التى بين أيدينا ، وأخبرت الطبيب بظروفها فى عبارات سريعة . واستقر الرأى على المبادرة بالانتقال الى المقبرة . فقمنا الى السيارة وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكانا قصياً فى المزارع قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع مقابر من الطين والآجر قد علتها « شواهد » طويلة سمراء كأنها رؤوس المفاريت فنزلنا . وهرع لاستقبالنا الحراس . هبوا فجأة من مراقدهم لرآنا وخرجوا علينا ، بعضهم يهبط من أعالى « مرتبة » قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق الناقة ، وبعضهم يثب من على حصير فرش بين يدى هذه المقبرة كأنهم قردة تثب من حجر أمها ؛ وسألت عن حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعى ، فرأيت فتى فى ملابسه العسكرية يقبل

متبخترا على حصانه الأشهب . ولم تمض لحظة حتى بدأنا العمل ؛ فأمرنا اللحاد بفتح المقبرة فأعمل فى الحال فأسه ومعوله فى البناء الذى يخفى المدخل . وسألنى الطبيب الشرعى عما إذا كنا استدعينا أحداً من أهل المتوفاة يستطيع أن يتعرف على الجثة وكفنها ؛ فأجبته أنا لا نعرف للمتوفاة غير أخت قد هربت واختفت . فاقترح إيفاد الملاحظ الى القرية يحضر لنا امرأة من الجيران ممن حضروا غسلها أو دفنها . فقام الملاحظ للفور لما انتدب له . وأمعن اللحاد فى الدق والهدم حتى جرح صدر المقبرة جرحاً بالغاً وقام عنها وهو يقول :

— الباب من غير مؤاخذة من ورا ...

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى وجعل يوسعها ضربا وطرقا . فصاح به الطبيب الشرعى :

— هل هى يا رجل مقبرة تموت عنخ آمون ؟ تغلط فى المدخل وأنت لحاد الناحية !

— أصله يا حضرة الدكتور مضى عليها زمن مقفولة

وضرب ضربتين انفتح تحتهما المدخل . وزحف الرجل على يديه وقدميه إلى داخل المقبرة وخرج يجذب شيئاً ملفوفاً فى «قماش» لا لون له من القدم تكاد أطرافه تتفتت فى أصابعه . ووضعه تحت أنظارنا وهو يقول :

— شوفوا هى دى « بلا قافية » الحرمة ؟

فكشف الطبيب الشرعى عن تلك العظام النخرة ونظر فيها ثم قال للحاد :

— ارجع بها يا حمار . دى جثة رجل

— راجل ؟

واختفى اللحاد بالجثة فى قلب المقبرة وعاد فظهر بجثة أخرى ما كاد يفحصها الطبيب حتى وجدها هى كذلك جثة رجل . وهكذا ظل يعرض علينا الجثث التى وقعت عليها يده فاذا كلها لرجال . فصاح اللحاد مغيظاً :

— أمال النسوان راحت فين يا رجالة ؟

فقال له الطبيب فى هدوء :

حضرتك بالاختصار غلطت فى المقبرة

ثم نظر إلى المقبرة التى بجوارها وقال له :

— افتح دى

فذهب اللحاد بأدواته حيث أشار إليه الطبيب بينما أرسل الحراس « متاعهم » من فوق المقبرة الأولى وهم يتهامسون :

— بقى كنا راكبين غلط !

وفتحت المقبرة الثانية . وما كاد اللحاد يزحف إليها ويختفى فيها حتى ظهر الملاحظ عائداً وخلفه امرأة تخفى وجهها بطرف طرحتها السوداء وترفع عقيرتها مولولة :

— يا للى كنت منورة الحارة !

فسد الملاحظ فمها فى الحال منتهراً :

— اخرسى يا ولية !

واقترب الطبيب الشرعى من المرأة وحادثها فعلم منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها

— اسمى يا ستى . الميتة كفنوها قدامك ؟

فتنهدت المرأة وقالت :

— قدامى يا سيدى ، وبقيت بعيد عنك ألطم وأرقع بالصوت

— المهم عندنا مش اللطم ، كفنوها فى كم « درج »

— فى عين العدو ثلاثة « أدراج » : درج مرمر ودرج كزمير ودرج حرير أخضر ...

وخرج اللحاد وقتئذ يجذب من داخل المقبرة جثة فحص الطبيب كفنها وقد ذهب لونه بفعل الزمن إلا بقية اخضرار خفيف فى أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر ، فأمر من الفور بحمل الجثة ووضعها على « لوحين » من الخشب نصبا سريعاً على هيأة مشرحة تحت ظلال شجرة من السنط ، وطلب إبعاد الحاضرين فرفع الملاحظ عصاه الخيزران الرفيعة فى يده وفرق الناس صائحاً :

— بعيد . بعيد ...

وكشف الطبيب الكفن فى احتياط . وما كاد ذلك الهيكل العظمى المسجى يظهر للعيان حتى سمعت خلفى همسا وهمهمة ، فاستدرت فأبصرت سائق السيارة مختفيا خلف جذع الشجرة شاحب الوجه بارز العينين يشاهد هذا المنظر ولا يملك نفسه :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! إنا لله وإنا اليه راجعون !

ولمحه الطبيب فانتهره وأمره بالابتعاد . وصحت أنا كذلك فى السائق صيحة انصرف بعدها الى سيارته وقبع فيها . غير أنى تأملت قليلا أمر هذا السائق ... ما الذى روعه ؟ أهو منظر العظام فى ذاتها ، أم فكرة الموت الممثلة فيها ، أم المصير الآدمى وقد رآه أمامه رأى العين ؟ ولماذا لم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر فى مثلى وفى مثل الطبيب ، وحتى فى مثل اللحاد أو الحراس هذا التأثير ؟ يخيل إلى أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من رموز . فهى لا تعدو فى نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الحطب وقوالب الطين والآجر . إنها أشياء تتداولها أيدينا فى عملنا اليومى . لقد انفصل عنها ذلك « الرمز » الذى هو كل قوتها . نعم . وماذا يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة التى لها فى حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك « الرمز » أيبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جرم مادى حجر أو عظم لا يساوى شيئا ولا يعنى شيئا . ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها « الرمز » ... « الرمز » هو فى ذاته كائن لا وجود له . هو لا شىء ، وهو مع ذلك كل شىء فى حياتنا الآدمية . هذا « اللاشىء » الذى نشيد عليه حياتنا هو كل ما نملك من سمو نختال به ونمتاز على غيرنا من المخلوقات . هنا كل الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا

وقطع الطبيب سلسلة تفكيرى بمقص طبى فى يده ذات القفاز الجلدى الشفاف يفحص به العظام قائلا :

— امرأة من غير شك

ومضى فى عمله وهو يقول :

— الأضلاع سليمة ، والجمجمة : الطاسة سليمة ، والعظم اللامى ... وهنا نظرت اليه فى انتباه . فالعظم اللامى فى العنق هو الدليل الناطق على حدوث الجريمة . فان كسره معناه أن الخنق قد وقع . وإن كل ما يهمنا فى الحقيقة من استخراج الجثة والكشف عنها هو فحص العظم اللامى ، والتحقق من سلامته . ولم يمهلنى الطبيب حتى أسأله وصاح وهو يريني هذا العظم بين أصابعه :

— مكسور

هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفى من الأمر . ان ما جاء فى البلاغ المجهول المصدر حقيق إذن . وماذا أنتظر بعد ذلك . وصحت فى الطبيب :

— انتهينا . وعزمت على العودة مسرعا للبدء فى تدبير ما ينبغى للوصول الى معرفة سر هذه القضية الجديدة ، فهى من دون ريب مفتاح الأولى

وفرغ الطبيب الشرعى من أمر الجثة وأعادها اللحاد أمامنا الى مقرها وسد عليها كما كانت . وأنا صامت فى مكانى أفكر فيمن يكون الخانق لهذه المرأة . أهو زوجها المصاب ؟ وما الذى حمله على ذلك ؟ وأختها ريم ما شأنها فى الأمر ؟ أتراها تعلم بهذه الجريمة ؟ وأين ريم الآن ؟ إن وجودها اليوم فى التحقيق ذو أهمية كبرى . ولكن كيف نعثر عليها ؟ إن الشيخ عصفور يعلم مقرها ، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا فى البحث عنها . إذن فلنجعل الشيخ عصفور مبدأ لخط السير الجديد . فلأقنعه أنا بوسائلى بعيداً عن طرق الادارة العنيفة . إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء . ترى لو أفهمته مثلا أن فى إمكانى أن أزوجها منه ... وأعجبتنى الفكرة وعزمت على تنفيذها . وركبنا السيارة عائدين . ومررنا فى طريقنا بالقرية ، فاذا أصوات حزن وولولة نساء ترتفع من « دوار » العمدة . فقلت وأنا أقف السائق باشارة :

— العمدة مات ؟

وأطللت من نافذة السيارة ، فاذا أنا أمام منظر لم أفهمه أول الأمر . رأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض الخفراء يحملون شيئاً فى أيديهم ومن حولهم جموع الرجال والنساء والصبيان يهللون ويكبرون والنساء يزغردن كما يفعلن فى الأفراح وفى أيديهن الدفوف يضربن عليها . وتأملت جيداً ما يحملونه وتأمل معى الطبيب الشرعى دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من طراز تليفونات المراكز . فصاح الطبيب فى عجب :

— التليفون له زفة كأنها زفة عروسة

ومر بقربنا خفير نظامى فأشرت إليه فاقترب وسألته عن الخبر فأجابنى انه قد صدر اليوم أمر برفض العمدة الحالى وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة فى القرية . ففهمنا كل شىء ، ومال على الطبيب يقول ضاحكا :

— يظهر أن تليفون الحكومة عند العمدة فى مقام الصولجان

— هذا صحيح فيما أرى ، انه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة ، وان خلعه من دار العمدة « المخلوع » إنما هو « رمز » لزوال السلطة ، وأن هذا العويل المرتفع من « دوار » العمدة القديم ، وهذا البكاء الذى يشيع به التليفون الخارج من بيته لدليل على فداحة المصيبة ؛ وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر البائس يطل على ناحية أخرى ؛ وإن دار العمدة الجديد الذى يستقبل التليفون الداخل عليه بالزغاريد والدفوف لدليل أيضا على مباغ السعادة والهناء . هنا « الرمز » كذلك فى شكل « تليفون » من الصلب والخشب

وقد لعب دوراً مهماً على مسرح هذه القرية الوادعة

وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت فى بعض الطريق . وأخيراً التفت إلى وقال :

— يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة الجديدة

فقلت له : إن هذه القرية ككل قرية اليوم فى مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس العمدية وكل منهما ينتمى إلى حزب من الأحزاب التى تتنازع الحكم . ولماذا تريد أن يكون الحال فى القرية غيره فى الدولة ؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة ؟

(يتبع) توفيق الحكيم